ماثيـــو أرنولد

Mathew Arnold

للأستاذ خيري حماد

— ٥ —

آراؤه السياسية:

كان أرنولد محافظا معتدلا ، ورغما عن أنه لم يرشح يوماً ما لعضوية البرلمان إلا أنه كان شديد الميل للسياسة . وقد ظهرت هذه الرغبة جلية فى السنين الأخيرة من حياته ؛ فلما نزع يده من الأمور الدينية اشتغل ببحث المسائل والمشاكل السياسية بحثا استنفد قسما كبيراً من اهتمامه ووقته . وكانت له من تجاربه فى وظيفته الحكومية حنكة سياسية يندر أن توجد فى أمثاله . ناهيك عن قدرته على استطلاع خفايا المشاكل العويصة وطريقة حلها بأسلوب منطقى محكم ، لاسيما وقد امتزج بسائر طبقات الشعب فعرف عنهم جميع صفاتهم وأخلاقهم .

ولكن أولى مهامه السياسية باءت بالفشل الذريع ، فقد عارض بكل قواه قانون الدفن . ولكن جهوده السياسية كانت خائبة فطبق هذا القانون مدة طويلة من الزمن ، وكان يرهب نتائج الحكم اللامركزى ويعارضه بكل قواه ، فجاهد فى سبيل القضاء عليه جهود الجبابرة ، ولكنه لسوء حظه فشل للمرة الثانية وباء بالخسران . ولتبرير سقوطه كتب قائلا : « لست أدعى السياسة ، ولكنى شخص عادى أبصر بهذه الحالة التى تسود البلاد . ولم يعتمد على أنصار وأحزاب منظمة ؛ بل جاهد بمفرده ليسعى فى إنالة بلاده قسطاً أوفر من المدنية[1] » .

وفى مقدمة مقالاته الإرلندية تراه يكتب : « إن دهاة القوم وكبار الساسة ليعارضون فضول رجل أديب مثلى . ولكنهم فى الحقيقة لم يعارضوه إلا عند مخالفته لآرائهم السياسية . وفى الجدال السياسى الذى حدث سنة ١٨٨٦ ، نرى كلا الطرفين من أنصار

(١) Poul Grnald, P. 153

عليها ، ولا يدلنا فيها . لكل فعل سببه الكافى . والقائلون بالاختيار يذهبون إلى أن الفعل الارادى أو الحر هو الفعل الذى وإن كان للقيام به سبب كاف ، فإنه — أى الفعل — ليس ضروريا . وتهافت هذا التعريف ظاهر لاخفاء به . فإنه إذا لم يقع حدث أو فعل ما ، فلأن سبباً كافيا لوقوعه لا يوجد . إن السبب الكافى يرادف الضرورة . والإنسان ، كسائر المخلوقات ، خاضع لقانون الضرورة ، للقدر ، أو — إن شئت — لإرادة الله ؛ والخير والشر ، بعد ، معنيان نسبيان ، فالأول يرادف الموافق أو المرضى ، والثانى يرادف المكروه أو الغير الموافق . و « المصلحة » هى الحكم الفصل فى الأخلاق وفى كل شىء . أما الخير المطلق ، والشر المطلق ، والعدالة المطلقة ، والفضيلة المطلقة ، فأوهام ابتكرها العقل اللاهوتى ، وما بعد الطبيعة . . .

إن فلسفة « هوبز » السياسية تتفق مع هذه المقدمات الأنطلوجية . فالحرية ممتنعة عنده فى ميدان السياسة ، كما هى ممتنعة فى ميدان الأخلاق ، وميدان ما بعد الطبيعة . وإنما الحق للقوة ، فى الدولة وفى حال الطبيعة على السواء . وحالة البشر الطبيعية عبارة عن « حرب الجميع (ضد) الجميع » . والدولة هى الوسيلة التى لا بد منها لوقف هذا الصراع . وهى تحمى حيوات الأفراد وأموالهم فى مقابل خضوعهم لها خضوعاً مطلقا . فما تأمر به خير ، وما تنهى عنه شر ، وإرادتها هى القانون الأعلى .

لا نريد أن نقف عند هذه النظرية التى تقول بضرورة الحكم المطلق ، والتى هى النتيجة المنطقية لمذهب المادة . وإنما نريد أن نشير — فى ختام هذا البحث — إلى أن هوبز يختلف عن بيكن فى ناحيتين هامتين : أما أولاهما فهى أنه يقول بنظام ميتافيزيقى : النظام المادى . وأما الثانية فهى أنه يعطى القياس قيمة تفوق قيمته عن بيكن . لقد أغفل هذا الأخير ، حين جعل الاستقراء المنهج الكلى ، أمرين :

١ : الدور الذى يلعبه الإستنتاج فى الرياضيات .

٢ : الدور الذى لعبه العنصر الرياضى والنظر القبلى فى مكتشفات القرن الخامس عشر . ومن هنا فإن هوبز يقف موقفاً وسطا بين مذهب التجربة الخالص ومذهب ديكارت العقلى .

(بغداد) عبد الكريم الناصرى

الوحدة والحكم الذاتى فى أرلندة يعترون بانسياب عدد من الأدباء والكتاب لحزبهم .

وكل محاولة لتبيان آرائه السياسية تعد ناقصة إذا لم تتناول عقيدته فى الحكم الذاتى لإرلنده . فقد عارض بقوة قانون الحكم الذاتى الذى صدر سنة ١٨٨٦ ، وكتب إلى جريدة التايمس مقالا يحتج فيه على السياسة الحرقاء التى يرتكبونها بسن مثل هذا القانون . وفى هذا الاحتجاج نراه يعدد المساوىء التى يرتكبها القوم فى إرلنده وطالب بازالتها والقضاء عليها . واقترح إنشاء نظام حكومى فى إرلنده يرتبط تمام الارتباط بالحكومة المركزية فى لندن .

وبهذه المحاولات العديدة التى قام بها من الناحية السياسية لم تكن كافية لإقناع القوم بشخصيته كسياسى بارع . فلم يصبح عضواً فى البرلمان ولم تكن له القوة يوما ما لإدارة دفة الإنتخاب ، ولكن عند وفاته نرى البرلمان يعلن الحداد عليه رسمياً مدة ليست بالقصيرة ، مما يدل على تأثرهم بنظرياته وآرائه التى كان لها شأن عظيم فى التأثير على أفكار القوم ، ووضعها فى الصورة التى يريدها .

وفى الحقيقة كان أرنولد حر الفكر يجاهد فى سبيل إعطاء سائر الأمم المستعمرة حريتها وخاصة إرلنده . ولكن هذه الحرية لاتعنى انفصال هذه المستعمرات انفصالا تاماً عن الحكومة المركزية ؛ بل تظل تهتدى بهديها وتستن سننها .

كتبه ومؤلفاته :

إن من الصعب علينا فى هذا المقال القصير أن نحاول تحليل جميع الكتب التى ألفها أرنولد من أدب وشعر وفلسفة ودين . ولكنى أكتفى بتحليل بعض مؤلفاته تحليلا موجزاً يظهر لنا نبوغه وعبقريته الأدبيتين . وهذه المؤلفات هى : —

١ — أمبدوكليس على جبل إتنا

ظهر هذا الكتاب سنة ١٨٥٢ يحوى بعضاً من خير القصائد التى كتبها المؤلف فقابله الجمهور بفتور شديد مما كان يدعو إلى يأس أرنولد وقنوطه لولا التشجيع الذى قابله به الشاعر روبرت براوننج المشهور . ويشتمل هذا الكتاب على قصائد عدة أهمها « أشعار الذكرى » التى قالها فى رثاء الشاعر الكبير ولم وردزورث . ومطلع قصيدته كما يلى :

« لقد دفن جيتى منذ مدة طويلة فى مدينة ويمر .

« وقد شهدت بلاد اليونان جهاد بيرون الطويل وموته

« ولكن وفاة هذا العظيم كانت منتظرة منذ مدة طويلة

« لتخمد جذوة الشعر .

« ما الذى يمكننا أن نقوله فى وصف وفاة وردزورث ؟ »

وقد أعجب براوننج بهذا الكتاب إعجاباً شديداً دعاه إلى إعادة طبعه مرة ثانية سنة ١٨٦٧ . فكلا الموضوع والأسلوب كلاسيكى جذاب . وقد وصف أرنولد أمبدوكليس وصفاً دقيقاً وأظهره بصورة فيلسوف يونانى ولد فى جزيرة صقلية فى القرن الخامس قبل الميلاد وفلسفته الباقية لدينا تدل على تصوفه وعلى حياة الأحلام التى كان يحياها .

والأغنية التى ينشد أمبدوكليس كأنه بها لا تقل عن قصيدة (ربى بن عزرا) فى القوة والخيال الشعريين فهى تحوى بعض الأبيات الرائعة كقوله :

« قد نرغب فى الحصول على الهدوء النفسى .

« ومع ذلك فإننا لا نتطلع إلى أنفسنا .

« ونحب القضاء على التعاسة والبؤس .

« بينما لا نحاول الإمتناع عن الشرور والآثام » .

وأكثر أبيات هذه القصيدة روعة هى أغنية غالسيم فى نهايتها .

« إن هذه الأمكنة لا تصلح لسكناك أيها الإله العظيم أبولو

« ولكن حيث تلتقى الجبال الغربية بصخور الشواطىء والبحار

ويتممها بقوله :

« لقد أتى أبولو قائداً .

« بفرقته الموسيقية المؤلفة من تسعة أشخاص .

« فالقائد جميل .

« وكل الأعضاء من أهل السماء » .

وجمال هذين المقطعين يتلخص فى احتوائهما على بعض الاصطلاحات الشعرية ويمتاز المقطع الأول بأسلوبه الشعرى الذى

يعد أسّاً من أسس الفن والأدب .

والقسم الثانى من هذا الكتاب يشمل على أقصوصة تريسترام والفتاتين الملقبتين بأيسو لت . وقد أحب تريسترام إحدى هاتين الفتاتين ولكنه اضطر إلى الزواج من الفتاة الأخرى : ولم يكن أرنولد موفقاً جداً فى سرد هذه القصة لأنه لم يتمها ولكنه جاء بها بطريقة جذابة . وبعض أبياتها لا يسعنا إلا ترادها لنشبع شهوتنا باللذة التى تجنيها منها :

« إن صوتها ليعلو على الضوضاء فيصل إلى أذنى .

« وأرى لألاءها من خلال الرماح المتشابكة .

« فتظهر ميتة تحت غطاء الشباب والعنفوان » .

وليس من المستحسن قراءة هذه القصيدة للقصة التى تحكيها . فهى أشهر من أن تقرأ فى مثل هذا الشعر الذى لا يظهرها بل يحافظ على غموضها وإبهامها . ولكنها تقرأ فى نفسها لهذه الأبيات الرائعة التى لا يمكن نكران قوتها وعذوبة أسلوبها .

٢ — رستم وسهراب

أجمع محبو أرنولد على أن هذه القصيدة من خير ما نظمه الشاعر . وقد ظهرت لأول مرة سنة ١٨٥٣ تحمل بين ثناياها جمالا طبيعياً مبتكراً يندر أن يوجد فى قصائده الأخرى . فهى قصة بطولة أسيوية نظمها الشاعر فى قصيدة من الشعر المرسل متبعاً فيها أسلوب الشاعر اليونانى العظيم هوميروس فى إلياذته . والقصة فى حد ذاتها رائعة ولكنها طويلة ، ولا يمكننى سردها فى هذه الرسالة لطولها . ولكنها تتلخص فى مبارزة وقعت بين والد وولده وكلاهما يجهل صاحبه . سقط الولد صريعاً فعرفه الوالد وحزن حزناً شديداً لقتله ولده . صمم على الانتحار فشجعه الولد بقوله :

« لا ترغب يا والدى فى الانتحار — يجب عليك أن تعيش .

« لأن كثيراً من الناس خلقوا للقيام بأعمال جليلة فى حياتهم

« بينما هناك كثيرون قدّر عليهم أن يعيشوا مغمورى الذكر ثم يموتون .

« وإنى لأتوسل إليك أن تقوم بجلائل الأعمال التى كنت « أتوق لعملها فتجنى نصراً آخر وفخراً فى حياتك »

يقلد أرنولد هوميروس فى سهولة وبساطة . فهذه القصيدة تحوى مشاعر خيالية رومانتيكية تعبر عنها تضحية الشاب فى سبيل القيام بجلائل الأعمال وعظائمها . فيموت فى الآونة الأخيرة التى كان يطمح فيها أن يصبح من كبار المحاربين والأبطال مقتولا بيد والده الذى يجهله ولا يعلم بوجوده .

٣ — ميروب

فى هذه الرواية التمثيلية نرى أرنولد يحاول أن يجعل من بوليفونتيس ملكا قوياً عاقلا يقوم بخير الأعمال للتكفير عن الذنوب العديدة التى ارتكبها أيام شبابه . ولم يكن أرنولد فى هذه الرواية موفقاً تمام التوفيق لأنه لم يخلق فيها شخصية تجتذب الجماهير وتأسر قلوبهم . ومع أن أسلوبها يونانى صرف إلا أن تقليده ليفوق تقليده فى رواية « الاطلانتيد فى كاليدون » أما من حيث الجمال والروعة فإن « ميروب » تقصر بكثرة عن سابقتها التى مع شذوذ أسلوبها وعدم ترتيبه تحوى روحاً فنية خالدة . فميروب جسد بلا روح وهى لا تحوى العاطفة التى تتقد فى الرواية الأخرى .

وقد نجحت الرواية نجاحا لم يكن ينتظره مؤلفها وبيعت بكثرة فى الطبقات الراقية من الأمة ، بينما طبقة العامة لم تأبه لها لعدم تفهمهم الآراء الفلسفية العديدة التى يضمنها فيها . وفى القصائد التى تحويها أبيات رائعة خالدة . ومنها هذه الأبيات :

« إن الطغاة ليجعلون من البشر رجالا حسنى الأخلاق

« أكثر مما يتظاهرون » . أو

« إن تاجك ليقضى عليك بينما لسانك ينقذك مما يحل بك »

أو الأربعة أبيات التالية :

« اسمع هذه الضوضاء التى تنبعث من الشوارع الأخرى

« واسمع ما يحدث من قتل الناس فى مثل هذه القاعات

« وهكذا تحكم أنت كما كان والدك يشاء ويهوى

« أو تحكم فتجعل من أعدائك عبيداً يخضعون لأمرك »

وجميع هذه الأبيات تخلو من القافية والوزن ، ولذا فانها عدت خشنة الأسلوب مع احتوائها لبعض الأفكار المألوفة .